

الداء والدواء من المنظور الإسلامي



د. محمد بن السايح (*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

تُبين من خلال هذا البحث (الداء والدواء من المنظور الإسلامي) ربط القلوب وتصويب الأذهان لحقيقة هامة: وهي أن الله تبارك وتعالى هو الشافي وهو منزل الداء والدواء، وذلك بعد أن تُبين حاجة الإنسان إلى التربية الروحية والمعنوية والنفسية وأنها أكثر إلحاحاً من التربية البدنية والمادية، وأن العلم وحده غير كاف لإسعاد الناس ما لم يكن معه إيمان، وأن من الصحة حفظ الجوارح (البصر - السمع - اللسان...) والتزامها بالمنهج الرباني كي تنعم بالعافية والطمأنينة، وأن الصحة النفسية أهم من غيرها، وبالنهاية نصل إلى مدى تطابق العلم والدين في وجوه الإعجاز المتعلقة بالقلب..

ولبحث هذا الموضوع اتبعت منهجية تدرجت فيها من خلق الكون إلى خلق الإنسان العاقل الذي هو بحاجة دائمة إلى رعاية السماء، كما أنه بحاجة لمعرفة مقاصده وأهدافه التي خلق من أجلها، ثم بينت أن أهم شيء في الإنسان قلبه الذي تعددت وظائفه ومسؤوليته على بقية أعضاء بدنه وذلك بنص القرآن الكريم والسنة النبوية

(*) أستاذ الفقه وأصوله بجامعة عمار ثلجي بالإغواط - الجزائر.

الشريفة واللذين هما مصدر شفائه... القلب ذلكم العضو العجيب...، والذي هو بحاجة ماسة إلى جمال الرعاية وتشديد العناية به... لنخلص في النهاية أن الله تعالى هو خالق الكون والإنسان وقد كرّم الإنسان بأن خلقه بيده وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها ونفخ فيه من روحه، ورسم له منهج السعادة والأمان والطمأنينة إلى نتائج تتفق مع التجارب النفسية والعلمية وكل ذلك من خلال العناوين التالية:

مقدمة.

- ١- حاجة العقل للشرع
- ٢- بداية خلق الكون
- ٣- غاية وقصد الخالق من الخلق
- ٤- خلق الإنسان وبيان حقيقته (جسد وروح)
- ٥- الله هو الشافي وكلامه هو المعافي
- ٦- الداء والدواء في القرآن الكريم
- ٧- القلب ليس مجرد مضخة
- ٨- العلم لا يُجدي بغير إيمان
- ٩- الإعجاز العلمي في قلب الإنسان
- ١٠- التأثير النفسي عند سماع القرآن الكريم
- خاتمة فيها أهم النتائج.
- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.

١- حاجة العقل للشرع:

الإنسان يعيش في وسط من العالم وقد تميزه عن بقية المخلوقات بميزة العقل، والسؤال الذي نطرحه: هو هل العقل وحده قادر على معرفة ماهية الإنسان وأهدافه وقادر على تلبية كل ما يتطلبه حاضره ومستقبله وللإجابة على هذا السؤال نذكر ملخص ما تناوله العلماء من التحسين والتقبيح العقليين، أي هل العقل وحده قادر على معرفة الحسن والقيح وثمره كل منهما في الدنيا والآخرة؟
وهنا نقف أمام ثلاثة آراء للعلماء:

١- أن حسن الأشياء وقبحها والثواب عليها والعقاب يعرف من جهة الشرع وهو قول الأشاعرة^(١).

٢- إن حسن الأشياء وقبحها والثواب عليها والعقاب يعرف من جهة العقل وهو قول المعتزلة والرافضة^(٢).

٣- إن حسن الأشياء وقبحها والثواب عليها والعقاب يعرف من جهة العقل دون ترتيب الثواب عليها أو عقاب، وهذا قول أهل السنة والجماعة ومن تبعهم^(٣).

ولكل فريق ممن سبق أدلته العقلية والنقلية يؤيد بها رأيه.. ولست هنا بصدد سردها، إلا أنه وبعد دراستها والنظر فيها تبين لي أن العقل وحده عاجز على معرفة الحسن والقيح مطلقاً، وذلك لاختلاف الثقافات والعادات والأهواء والمؤثرات الخارجية للإنسان، لذا لابد من توجيه العقل إلى سبيله حتى يعرف هدفه بوضوح، ومن هنا جاء دور الوحي أو الرسل أو العقل الخارجي كما سماه الغزالي قال تعالى:

(١) انظر المستطفى للغزالي: ٥٥/١ دار ابن حزم - بيروت، الأحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١/ ١١٩ وما بعدها دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٢) المراجع السابقة، وأصول الفقه لمحمد رضا المظفر الشيعي ١٢٢/٢.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣١٠/٨ و درء تعارض العقل والنقل ٣ و ٤ لابن تيمية واختار هذا الرأي ابن القيم الجوزية.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥، وقال أيضا: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء: ١٦٥، وقال أيضا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ القصص: ٥٩.

وهكذا نصل إلى حاجة الإنسان إلى الوحي أو إلى الرسل لتوجيه حركة فكره وقلبه واعتقاده حتى يعيش مطمئنا في الحياة الدنيا والآخرة، لذا نجد أن الرسل من لدن آدم عليه السلام، وإلى آخر رسول وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد جاءوا لتوجيه فكر الإنسان وقلبه إلى حقيقة جوهرية وهي: (وحدانية الله عز وجل) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ الأنبياء: ٢٥.

٢ - بداية خلق الكون:

وعليه فإن اصدق الكتب عندنا هي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ النساء: ١٢٢، وقال أيضا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء: ٨٧، والقرآن الكريم قد بين أن آخر مخلوق في هذه المعمورة هو الإنسان، لذا نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ {٩} وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِ {١٠} ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ {١١} فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {١٢}﴾. فصلت: ٩ - ١٢.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية دلت على أن الله تعالى خلق الأرض أولاً وفي يومين ثم قدر فيها أوقاتها في يومين ثم خلق السموات السبع في يومين فكان المجموع ستة أيام وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في عدة آيات كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الحديد: ٤، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ق: ٣٨. ومما يدل على خلق الأرض أولاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٩، وفي حديث رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قد فسر أن الأرض خلقها الله قبل السموات أما دحوها فكان بعد خلق السموات وهذا ما بيّنه قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ النازعات: ٣٠، وهذا من المشكل الذي أشار إليه ابن عباس في فصله للأشكال أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء وإن خلق السماء كان بعد خلق الأرض^(١).

ونلخص ما أشار إليه الحافظ ابن كثير في تفسير الآية إلى الآتي: (مع ملاحظة توثيقه ذلك بمرويات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم).

- ١- إن الله خلق الأرض في يومين (الأحد والاثنين).
- ٢- أنه قد في الأرض أوقاتها في يومين (الثلاثاء والأربعاء).
- ٣- أن الله خلق السموات السبع في يومين (الخميس والجمعة) وأوحى في كل سماء أمرها.

(١) انظر كل ذلك في تفسير ابن كثير ج ٤/ ص ١٤٨، وما بعدها دار أحياء التراث العربي بيروت.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَبَأٌ طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا قَالْتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت:

١١.

قال للسماء: اطلعي شمسي وقمري ونجومي... الخ.

وقال للأرض: شقي أناري وأخرجي ثماري... الخ.

وقد أشار في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم في آخر يوم

الجمعة^(١).

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلق تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ

بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت: ٢٠.

وقد دلت النصوص على أن آخر مخلوق في الكون هو أبونا آدم عليه السلام،

وذلك بعد خلق الأرض والسموات وفي ذلك دلالة على قيمة الجو له حتى يجد كسل

لوازم العيش والاستقرار ويستطيع أن يحقق أهداف وجوده.

وبعد استقراء النصوص القرآنية نجد أن الإنسان مخلوق مكرم، وعلامات التكريم

هي:

١- أن الله خلقه بيده ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾

ص: ٧٥.

٢- أن الله علمه الأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١.

٣- إن الله أسجد له ملائكته ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ البقرة: ٣٤.

٤- أن الله نفخ فيه من روحه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ص: ٧٢.

إذاً خلق الإنسان مُكرماً، وخلق أيضاً لهدف شملته كل الرسالات وهي عبادة الله

تعالى، وقد قال الشيخ محمد الغزالي -يرحمه الله- (نظر في عالم المسافات والأرقام

(١) المصدر السابق: ص ١٥٠.

ونظر إلى القمر يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس والشمس وتوابعها تسبح في فضاء مليء بالمجرات ومشحون بألوية الأفلاك. فالكون يتجاوز كل الظنون في عظمته وضخامته قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ^(١) ... يجب أن يعلم الناس أنهم يحيون بإيجاد الله و بإمداده، وإن الماديين والطبيعيين يقفون حيث يجب أي يبدؤوا وينطلقوا.

* * *

٣- غاية وقصد الخالق من الخلق:

ومن خلال استقراء آي القرآن الكريم يتضح لدينا أمران ^(٢):

الأول: غاية الحق من الخلق.

الثاني: المقاصد العليا الضابطة لحركة الإنسان.

كما بين الراغب الأصبهاني في (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) والغرض من خلق الإنسان يحدده قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ ^(٣) الذاريات: ٥٦.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:

٣٠.

(١) الروحانية الإسلامية حقيقتها وآفاقها - محاضرة ألقاها الشيخ في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر - منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف عام ٢٠٠٥م.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب: مقاصد الشريعة الإسلامية ص ٦٤ وما بعدها للدكتور طه جابر فياض العلواني دار الفكر - بيروت ٢٠٠١ (سلسلة آفات التجديد) وقد استفدت كثيرا من أفكاره حول المقاصد فجازاه الله عنا خير الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف: ١٢٩.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

الحديد: ٢٥.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ الصف: ١٤.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ

إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ هود: ٦١.

ومن خلال هذه الآيات حدد الأصبهاني الغرض من خلق الإنسان وهي: (العبادة،

الاستخلاف، النصرة، العمارة).

ومن خلال هذه الأهداف نستشعر (العهد والأمانة والابتلاء) ونعرف أن

المخلوقات الأخرى الكونية كلها مسخرة للإنسان المكرم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الجن: ١٣.

وعليه فنحكم على عمل الإنسان كونه حسنا أو قبيحا على ما يحققه من أهداف

ويقوم به من حق وأمانة، وبالتالي يكون أهلا للتسخير الإلهي له ووفق عمله الاختيار

الذي يقوم على (التوحيد، التزكية، العمران).

لذا نعرز العقل البشري برسالات الأنبياء لتحقيق الغايات السامية الهادفة إلى

السعادة.

لذا لابد أن يبنى العقل الإنساني على منظومة المقاصد العليا الحاكمة وهي:

أ- مقصد التوحيد.

ب- مقصد التزكية.

ج- مقصد العمران.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ الشمس ٩ - ١٠.

- فالتوحيد يمثل حق الخالق على المخلوق وهو قصد كل الرسالات السماوية.
- والتركية: تمثل مؤهلات الإنسان المستخلف لأنه بدونها يفقد أهلية القيام بدور الخليفة، وبالتالي يفقد مؤهلاته للعرمان.

- والكون: خلق لي عمر، ولا ننسى هنا عنصر الابتلاء ﴿لِيَلْبِسَكُمْ أَتَمَّ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: ٢، وهذا العنصر مصاحب للإنسان طول حياته لأنه المكلف وينال الجزاء يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ البروج: ١١.

ومعرفة الإنسان لهذه المقاصد الكبرى يكون قادرا على معرفة هدفه وقادرا على ربط المعرفة بالقيم ويميز العلم النافع من الضار في مختلف مستويات المعرفة، وهذا هم منهج القرآن.

كما أن هذه المقاصد تجعلنا نفهم العوالم الثلاثة التي نبه إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢.

- فعالم الأمر (الله تعالى، صفاته، ملائكته، أمره وما يتعلق به..).
- وعالم الإرادة (استخلاف الإنسان، اصطفاء الرسل من الملائكة والناس، والشعوب).

- وعالم الأشياء (الخلق والإيجاد).

وقد جعل الله في العالم سننا وقوانين يجب البحث عنها وتسخيرها في خدمة الأعمار، فالكون المستمر هو ميدان: الخلق الإلهي، والتسخير والإرادة والعرمان هو

ميدان: الفعل الإنساني لتحقيق العمران.

وهذه المقاصد صالحة لكل زمان ومكان وجاءت بها كل الرسل لأنها علة وسبب خلق العباد.

وقاعدة هذه المقاصد هي أن الله خالق (الكون والإنسان والحياة).

ونشير هنا إلى ما أشار إليه الشاطبي - رحمه الله - في أن للإنسان قصداً يجب أن يكون موافقاً لقصده الشارح، وهنا تبرز أهمية النية والباعث حتى ينال العامل الأجر على العبادة الخاصة (الشعائر التعبدية) وعلى العبادة العامة وهي العمارة والعمران. فالنية أساس في اعتبار الفعل وترتب أثاره عليه حتى يكون عبد الله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ البينة: ٥، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ غافر: ٦٥، ولقوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...) (١).

وقبل الحديث عن الإنسان وقلبه وشعوره وصحته أشير إلى أن الكون ومن فيه من المخلوقات (غير العاقلة) تسبح الحمد لله قال تعالى ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء: ٤٤.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ص: ١٨.

وقال تعالى: ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١.

٤ - خلق الإنسان وبيان حقيقته (جسد وروح):

بين القرآن الكريم أن الإنسان خلق من تراب قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

(١) انظر الجامع الصحيح حديث رقم: ١، رواه عمر بن الخطاب وأخرجه أبو داود في سننه رقم ٢٢٠١.

خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿السجدة: ٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ المؤمنون: ١٢.

ثم بين كيف جعل نسله من ماء مهين فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ السجدة: ٨، وقال تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَلْشُرَهُ (٢٢)﴾ سورة عبس: ١٧-٢٢.

وبين الحديث الشريف كيف تتطور خلقه الإنسان في الرحم فقال صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً. ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك. ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح. ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع. فيسبق عليه الكتاب. فيعمل بعمل أهل النار. فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار. حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع. فيسبق عليه الكتاب. فيعمل بعمل أهل الجنة. فيدخلها)^(١).

وهذا الحديث بين أطوار خلق الإنسان كما أن سورة المؤمنون قد أشارت إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ المؤمنون: ١٢-١٤.

(١) الراوي: عبدالله بن مسعود المحدث: مسلم - المصدر: المسند الصحيح - الصفحة أو الرقم: ٢٦٤٣ خلاصة الدرجة: صحيح.

وهنا يظهر إعجاز الخالق قال تعالى: ﴿سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فصلت: ٥٣. فمن الماء تتكون هذه العضلات والخلايا والشرابين والخليّة، ويخلق الإنسان الذي يملك نفسا ولحما وعظما وعقلا وسمعا وبصرا، فتبارك الله أحسن الخالقين قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ الزمر: ٦، وهذا الإنسان المخلوق العجيب مكون من (مادة و روح)، فالمادة نراها، أما الروح فنقرأ قوله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء: ٨٥، وهنا نقف وقفة لننظر تعاغم وانسجام الكون مع الحياة والإنسان، وذلك لما أشار إليه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي - يرحمه الله - في حديثه عن النفس الإنسانية^(١).

وقد يعبر بالنفس أحيانا ويقصد بها الروح أو العقل أو القلب، ويحدد أنها جوهر وهي حقيقة الآدمي وذاته وهي محل المعقولات وأنها قد تكون مطمئنة أو أمارة أو لومة حسب اعتقاد الإنسان والتزامه بالمنهج الرباني.

كما بين أن الآدمي قد استكمل بدنا بالطبيعة حتى عاش في هذا العالم، فيجب أن يستكمل نفسا بالشرعية حتى يعيش في ذلك العالم، وسخر الله الملائكة للطبيعة فحصل كمال الأبدان وبعث الأنبياء عليهم السلام مدبرين بالشرعية فحصل كمال النفوس.

ويعبر الغزالي بمنطق العارف ويقول: كما أن الصفوة بابتلاء الأمشاج حتى صار مولود سميعا بصيرا كذلك الصفوة في النفوس بابتلاء التكاليف واستخلاص النفوس حتى يصير سميعا بصيرا في ذلك العالم، ولولا تلك التصفية لم يكن ليعث ملكا إلى عالم الأرحام ولولا هذه التصفية لم يكن ليعث نبيا إلى عالم الأحكام.

وبين خلق الإنسان فيقول: عالم الملائكة يحشر الخلق من التراب إلى تمام الخلقة

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس لأبي حامد الغزالي ص ١٠ وما بعدها، شركة الشهاب - الجزائر ١٩٨٩ م.

الإنسانية، وعالم الأجسام يحشرون الخلق من الجهل إلى الفطرة الملكية لهذا العالم، فالملائكة والأنبياء عليهم السلام في عالم الخلق والأمر عمال الأمر الإلهي، وكل بأمره يعملون ومن خشية مشفقون يسبحون الليل والنهار لا يفترون^(١).

وأشار إلى العقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأسس والشرع كالبناء، فلن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسس، والعقل كالبصر والشرع كالشعاع قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ المائدة: ١٦، وبين أن الشرع عقل من الخارج لذا سلبه من الكافرين بقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فُهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٧١، ولأن العقل شرع من الداخل قال تعالى: ﴿فَطَوَّرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم: ٣٠، والاتحاد العقل والشرع قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾. النور ٣٥، أي نور العقل ونور الشرع. وبعد أن بين أن للكون والنبات والحيوان والإنسان لكل منهم نفس تبين أن القلب لا نعني به القطعة اللحمية، وإنما نعني الروح الإنساني المتحمل للأمانة المتحلي بالمعرفة قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن)^(٢)، وقال أيضا: (أن جوف ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت بها سائر الجسد ألا وهي القلب)^(٣). فالشرع والقلب والعقل والنفس هي محل العقولات. ثم قسمها إلى:

(١) المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) الراوي: النواس بن سميان المحدث: ابن خزيمة - المصدر: التوحيد - الصفحة أو الرقم: ١/ ١٩٠، خلاصة الدرجة: (أشار في المقدمة أنه صح وثبت بالإسناد الثابت الصحيح)

(٣) الراوي: النعمان بن بشير المحدث: البخاري - المصدر الجامع الصحيح - الصفحة أو الرقم: ٥٢، خلاصة الدرجة (صحيح).

- ١- جمادية (تتحرك) نفس طبيعية.
 - ٢- نباتية تنمو وبحاجة إلى تعهد للانتفاع بها وتوليد مثلها.
 - ٣- حيوانية تشعر ولا تعقل محتاج للرعاية والتسخير للانتفاع والتوليد والإنتاج.
 - ٤- إنسانية تشعر وتعقل حركتها فكرية بحاجة إلى حسن عناية وتكليف وتأيد وتسديد وتعريف لـ: (الحق والصدق والخير)، ومن وصفت اختياراته في حركاته بالحق والصدق والخير فهو الذي يحق له أن يقول: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)^(١).
- قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. البقرة: ١٥١.

* * *

٥- الله هو الشافي وكلامه هو المعافي:

هذا الإنسان الذي خلقه الله عز وجل لا تجد فيه اثنان يشتهيان في البصمة ولا في نبرة الصوت، ولا في قزحية العين ولا في رائحة الجلد، وقد أشار إلى ذلك أ. د. راتب النابلسي في شرحه لأسماء الله الحسنى^(٢)، وهذا من كمال قدرة وعظمة الله تبارك وتعالى.

والقلب في الإنسان يضخ ملايين الأقفان من الدم، والدم يمر في مائة ١٠٠ كلم خمس مرات كل يوم خلال وحدات التصفية في الكليتين.

هذا فضلا عن جهاز المناعة الطبيعي في الإنسان، فتبارك الله أحسن الخالقين!! والإحساس بالأمن يكون في الإيمان لذا فالتوحيد صحة وأمن وأمان، لأن أمرك بيد الله تعالى ولن يسلمك لمخلوق آخر. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَا يَفْضُلْ وَلَا

(١) الراوي: المحدث: ابن تيمية - المصدر: مجموع الفتاوى - الصفحة أو الرقم: ٣٧٥ / ١٨، خلاصة الدرجة: المعنى صحيح، لكن لا يعرف له إسناد ثابت وذكره الغزالي في كتابه معارج القدس.

(٢) موقع قناة الرسالة الفضائية، وموقع الدكتور النابلسي علي النت.

يَشْفَى ﴿فَالْإِيمَانُ: حُبُّ وَوُدٌّ وَتَأْيِيدٌ وَتَوْفِيقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ الأنعام: ٨١، ٨٢.

وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد ٢٨، فإذا اطمأن قلب الإنسان اطمأن جسده فنعمة الإيمان روحية وجسدية وصحية تقوي جهاز المناعة.

ومن أسماء الله تعالى: (الشافئ)، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠)﴾ الشعراء ٧٨-٨٠، فاصل المرض خروج عن المنهج وهو أصل المرض الجسمي والقلبي وإذا خالف الإنسان المنهج ومرض فقد جعل الله له شفايين.

١- القرآن الكريم: شفاء للنفس، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢.

٢- الأدوية: شفاء للجسم وقد قال صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)^(١).

وقد أشار الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله في كتابه (الداء والدواء) إلى أن ضرر الذنوب في القلب كضرر السموم في الأبدان^(٢).

وقد أشار العلماء إلى أن أمراض القلب أخطر من أمراض الجسد، لأن أمراض الجسد كلها تنتهي بالموت، أما أمراض القلب فتبدأ بعد الموت البداية الحقيقية، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ الشعراء: ٨٨، ٨٩.

ولا بد لأخذ الأسباب والبحث عن العلل والأمراض وعن المضادات لها ثم نعلم بعد

(١) رواه البخاري رقم ٥٣٥٤ في الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

(٢) الداء والدواء، ص ٨٤، لابن القيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق.

ذلك أن الشفاء يكون بإذن الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ١٤.

لأن الحق عندما يعلوا وينزل الباطل يفرح المؤمن ويُسِر.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ الأنعام: ٤٤.

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُخَوِّضَهُ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٨.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٥٧.

وقال تعالى عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ فصلت: ٤٤.

والقارئ للقرآن يتمتع الله بعقله، ومن ظن أن احد يمكنه أن يؤتى بأفضل من أوتي القرآن فقد حقر ما عظمه الله تعالى.

وجاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أخي يشتكى بطنه فقال: اسقه عسلا، فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئا وفي لفظ لم يزد إلا استطلاقا مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول له: (اسقه عسلا)، فقال في الثالثة أو الرابعة (صدق الله وكذب بطن أخيك)^(١).

(١) أخرجه البخاري في الطب ومسلم في المرام، انظر الطب النبوي لابن القيم، دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان ١٩٩٢، ص ٢٧.

٦- الداء والدواء في القرآن الكريم

القرآن الكريم شفاء للأبدان والأرواح

أشار القرآن الكريم إلى أنه شفاء ورحمة وهدى للمؤمنين والمتقين والعالمين، وقد بين ابن القيم فصولاً نافعة في هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطب الذي تطيب به ووصفه لغيره، وبين أن المرض نوعان^(١):

أ- مرض القلوب: وهو مرض الشهوة والشك والشبهة، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. البقرة: ١٠، وقال تعالى: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ المدثر: ١٣١، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (٤٩) أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ النور: ٤٩، ٥٠، وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتَقَيَّنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ الأحزاب: ٣٢.

ب- مرض الأبدان: كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ النور: ٦١. وقال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ البقرة: ١٨٤.

وبين ابن القيم في نفس المرجع (الطب النبوي) أن مرض القلوب مسلم إلى الرسل ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم، وأن صلاح القلوب هي أن تكون عارفة برها وفاطرها وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه.

(١) انظر الطب النبوي لابن القيم ص ٥ وما بعدها.

وقد ذكر أسباب مرض البدن وبين أن علاجه إما بالغذاء وإما بالدواء.
وذكر أنواعا لعلاجات خاصة بالبدن كاصطلاح البطن مثلا، وعلاج السم مثلا
كما ذكر أنواعا لعلاج القلب والنفس والكرب والهم.

و بين في كتابه الداء والدواء أهمية التداوي مستدلا بما جاء في صحيح مسلم من
حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل داء دواء
فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله)^(١)، وثبت في صحيح البخاري من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أنزل الله داء إلا
أنزل له شفاء)^(٢)، وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله
لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله)^(٣)، وحدد
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن داء واحدا لم يضع له شفاء ولما سئل عنه قال:
(المهرم)^(٤)، ونهى عليه الصلاة والسلام من التداوي بالمحرمات وقد روى أبو داود في
سننه من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم -: (إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تداووا
بالمحرم).

وذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم
عليكم.

وفي السنن: عن أبي هريرة، قال: نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن
الدواء الخبيث.

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٠٤، انظر الداء والدواء لابن القيم ص ١٨.

(٢) رواه البخاري في الطب عن عبد الله بن مسعود رقم: ٥٣٥٤.

(٣) رواه أحمد في مسنده ج ٣/٣٣٥، وكذلك أخرجه مسلم رقم ٢٢٠٤.

(٤) رواه الترمذي في الطب رقم: ٢٠٣٨ ورجاله ثقات.

وفي صحيح مسلم عن طارق بن سويد الجعفي، أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الخمر، فنهاه، أو كرهه أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: (إنه ليس بدواء، ولكنه داء).

وفي السنن أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل عن الخمر يجعل في الدواء، فقال: (إنها داء وليست بالدواء)، رواه أبو داود، والترمذي.

وفي صحيح مسلم عن طارق بن سويد الحضرمي، قال: (قلت: يا رسول الله! إن بأرضنا أعناباً نعصرها فنشرب منها، قال: لا فراجعتها، قلت: إنا تستشفي للمريض، قال: إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء).

وفي سنن النسائي أن طبيباً ذكر ضعفه في دواء عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنهاه عن قتلها.

ويذكر عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من تداوى بالخمر، فلا شفاه الله). وهذا التوجيه نجده منسجماً مع التشريع الإلهي وأنقل كلام ابن القيم في سر ذلك التحريم بالتداوي بالحرمان فقال رحمه الله تعالى: (وها هنا سر لطيف في كون المحرمات لا يستشفى بها، فإن شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول، واعتقاد منفعته، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء، فإن النافع هو المبارك، وأنفع الأشياء وأبركها، المبارك من الناس أينما كان هو الذي ينتفع به حيث حل، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتاتها، وبين حسن ظنه بها، وتلقيه طبعه لها بالقبول، بل كلما كان العبد أعظم إيماناً، كان أكره لها وأسوأ اعتقاداً فيها، وطبعه أكره شيء لها، فإذا تناولها في هذه الحال، كانت داء له لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها، وسوء الظن والكراهة لها بالخبث، وهذا يناقض الإيمان، فلا يتناولها المؤمن قط إلا على وجه داء، والله أعلم^(١)، وذكر أن من أنفع الأدوية الدعاء وهو عدو البلاء وهو سلاح المؤمن، وهذه إشارات إلى أهمية الجانب النفسي وتأثيره على الجانب البدني

(١) انظر كتاب الطب النبوي لابن القيم ص ١١٤ وما بعدهدار مكتبة الهلال بيروت لبنان.

أو الجسدي.

كما بين آثار الذنوب والمعاصي في حرمان الخير والرزق والبركة استنادا لقوله صلى الله عليه (إن الرجل يحرم الرزق بالذنوب يصيبه)^(١)، وبين أن المعاصي تفسد العقل وأن كثيرا من الذنوب تدخل تحت لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كالراشي والواصلة والتامصة والوارشة (وهي التي تحد أسنانها)، وأكل الربا وكتابه وشاهديه، والمحلل والمحلل له، والسارق، وشارب الخمر وعاصرها وبائعها ومشتريها وحاملها، ومن لعن والديه، والمختئين والمرتجلات، وما ذبح لغير الله، ومن سب أمه وأباه، ومن ضار مسلما أو مكر به، ومن أفسد امرأة على زوجها، ومن باتت مهاجرة لفراس زوجها، ومن انتسب إلى غير أبيه، ومن أشار إلى أخيه بحديدة، ومن سب الصحابة، ومن كتم ما أنزل الله من البينات والهدى، والذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة، ولعن من جعل الكافرين أهدي من سبيل المؤمنين، والرجل يلبس لباس المرأة والعكس، والراشي والمرثشي، وحرمان دعوة الملائكة..

- والذنوب سبب للفساد في الأرض والخسف والزلازل، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الروم: ٤١.

وهكذا نصل إلى أن الإيمان هو أصل الأمن والطمأنينة وأن القلب هو محل الإيمان لذا كان يدعوا صلى الله عليه وسلم بقوله: (اللهم رب الناس أذهب البأس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما)^(٢)، ويشفى المريض إذا اعتقد أن الله هو الشافي والتوبة شفاء، ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: (اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت)^(٣)، (اللهم عافني في سمعي وبصري واجعلها الوارث مني)^(٤).

(١) رواه ابن ماجة في الفتن، انظر الداء والدواء وتخريجه ص ٨٧.

(٢) الراوي: عائشة، المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٤٦٣٩.

(٣) الراوي: الحسن بن علي بن أبي طالب، المحدث: أبو داود - المصدر: سنن أبي داود - الصفحة أو الرقم: ١٤٢٥.

(٤) الراوي: عائشة، المحدث: الترمذي - المصدر: سنن الترمذي - الصفحة أو الرقم: ٣٤٨٠.

٧- القلب ليس مجرد مضغّة:

وقد أورد الإمام ابن القيم في كتابه القيم: (الفوائد) شروطاً للانتفاع بالقرآن الكريم عند سماعه أخصها في الآتي^(١):

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك وأحضر حضور من يخاطبه به، قال تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق: ٣٧، فالقلب الحي هو المحل والمراد به الذي يعقل عن الله، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِّتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي حي القلب (وهو شهيد) أي شاهد القلب غير غائب ولذلك شروط هي:

- ١- وجود المؤثر (القرآن) ٢- المحل القابل (القلب الحي) ٣- الاستماع الجيد (الإصغاء) ٤- انتفاء المانع (عدم انشغال القلب وانصرافه) ويتوافر هذه الشروط يتم تحصيل النتيجة وهي: الانتفاع والأثر (التذكر، الفهم، العقل) وقد أشار ابن قتيبة الدينوري من علماء العصر الثالث الهجري إلى ذلك (انظر: ص ١٢-١٣).

وخلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفة وجه وإرادته، فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته وإرادته قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ النمل: ٦٠، وإذا لم يكن قلب الإنسان أظهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وإرادة، فالمثل الأعلى مستو على القلب المؤمن فهو عرشه والنور السدي يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي

(١) انظر: الفوائد لابن القيم: ١٢ ص - ١٣ - ٥٠ - ٥١ - ٥٣ - ١٦١ - ١٦٢١٧٥ دار التوزيع والنشر الإسلامية - مصر ١٩٩٨ م.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الروم: ٢٧، فقبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كذلك في الماديات) ص ٥٠-٥٣.

وقال تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) الأنفال: ٢٤، قال ابن عباس وجمهور المفسرين يحول بين الكفر والإيمان، وبين أهل الطاعة والمعصية، ويرجع ابن القيم ما ذهب إليه الواحدي عن قتادة وهو أن الله تعالى قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية فهو بينه وبين قلبه ثم قال: (لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه وتعالى بين العبد وقلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه... فمن تناقل عن الاستجابة فلا يأمن أن يحول بينه وبين قلبه فلا يُمكنه بعد ذلك من الاستجابة عقوبة له على تركها بعد وضوح الحق واستبانته وهذا نظير قوله تعالى: (وَقُلُوبُ أَقْدَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الأنعام: ١١٠ وكقوله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) الصف: ٥، (انظر: ص ١٦١-١٦٢) وهذه نظرة ثاقبة من عارف رباني بأدواء القلوب وطبها.

كما بين أن القلب يقسوا ويمرض ويصدأ ويعرى ويجوع ويظماً قال ابن القيم في ص ١٨٤: (القلب يمرض كما يمرض البدن وشفأؤه في التوبة.....، ويصدأ كما تصدأ المرأة وجلأؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزيته التقوى ويجوع ويظماً كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والأمانة والخدمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل وما جلأؤها يا رسول الله، قال تلاوة القرآن وذكر الموت).

ونُقيت قلوب الصحابة بقوله: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) المجادلة: ٢٢، وقال تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) العنكبوت: ٤٩، ويقول أيضاً في ص ١٨٤: (الرضا:

سكون القلب تحت مجاري الأحكام).

وبين دور القلب في جولان الخواطر فقال: للقلب ستة مواطن يجول فيها؛ ثلاثة سافلة: ١- دنيا تترين له. ٢- نفس تحدته. ٣- عدو يوسوس له. وثلاثة عالية: ١- علم يتبين له. ٢- عقل يرشده. ٤- إله يعبده.

ثم قال في ص ١٧٥: والقلوب جوالاة في هذه المواطن.

وأوضح أن العبد يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح قال تعالى: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) الحج: ٣٢، وقال تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) الحج: ٣٨، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (..التقوى ههنا) وأشار إلى قلبه^(١).

ولأهمية القلب فضل البعض أعمال القلب ورأوا أن أيسر يسير من وارداته التي ترد على قلوبهم من الله تعالى أحب إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فجمعيته وانكساره وجهه وذله بين يدي الله لا يستبدل بشيء سواه وهنا لابد من الإشارة إلى الموازنة في ترجيح الأعمال حسب الحالة والحاجة، والعمل كلما تعدى نفعه للغير كان أحسن عند الله تبارك وتعالى.

وأوضح أن الله لا يجمع ذخائره في قلب فيه سواه وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقراً دون الله والعز ذلاً دونه، والذلة عزاً معه والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه. (انظر: ص ٣٢٩)، وقد ذكر أن شفاء القلب ودواءه يكون بذكر الله تعالى^(٢).

(١) رواه مسلم رقم ٢٥٦٤/٢ والترمذي رقم ١٩٢٧ وأبو داود رقم ٤٨٦١ وأحمد في مسنده ٢٧٧/٢ وغيرهم.

(٢) انظر فضائل الذكر والدعاء لابن القيم ص ٩١. دار الجيسل - بيروت ودار الشهاب بباتنة - الجزائر ١٩٨٧.

٨- العلم لا يُجدي بغير الإيمان:

إن الشيء الذي تميز به الاسلام عن غيره هو احترامه للعقل ودعوته للنظر والتفكير وحثه على العلم والتعلم وإشادته بالعلماء وتمجيده للقراءة والكتابة، وحملته على الجهل والجمود، وإذا كان الإنسان جسم وروح، عقل وقلب، يتفاعل مع ما تُنبته الأرض وما ينتزل من السماء، فإنه لا تعارض أبداً بين صحيح المنقول وصريح المعقول، ولم تخالف آية من آيات القرآن حقيقة علمية ثابتة، والقرآن ليس كتاب علم بالمعنى الاصطلاحي للعلم الآن إلا أنه تضمن إشارات كثيرة إلى حقائق العلم، والقرآن ينشئ العقلية العلمية التي تؤمن بالعقليات وتعتمد على الملاحظة والتجربة^(١).

وقد أشاد بالعلماء قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) فاطر: ٢٨، ومع هذا فليس العقل كل شيء في الإنسان، ولا العلم كل شيء في الحياة، والإيمان هو الذي يعصم العلم من الشر والعدوان.

صحيح بالعلم تملك القوة المادية، ويعطينا الوسائل ولكنه لا يعطينا الغايات، وبالعلم نتنصر على الطبيعة ولا نتنصر على النفس وشهواتها ولا يحقق السكينة النفسية وحده، قال العلامة محمد إقبال عن التعليم الحديث: (أنه لا يعلم العين الدموع ولا القلب الخشوع).

إن الإيمان وحده هو الذي يمنح الطمأنينة وسكينة النفس التي هي روح السعادة، وسعادة الروح ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

إن السعادة الحقيقية: لا تعرض في الأسواق ولا تشتري بالنقود، ولا بالنفوذ إلا أنها

(١) معاني مقتبسة من محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي في ملتقى الحياة الروحية في الإسلام بولاية معسكر تحت عنوان: حاجتنا لتجديد الإيمان - منشورات وزارة الشؤون الدينية بالجزائر ٢٠٠٥م.

تنبع من أعماق النفوس وليست سلعة نستوردها من هنا أو هناك، فالإنسان اليوم يدير أموره بالتكنولوجيا كأن خدامه معه فهو يتمتع بما يزيد عما كان عليه هارون الرشيد أو قارون العتيد، فالعلم هياً رفاهية الجسم ولم يهين طمأنينة القلب.

كتب أحد القضاة البريطانيين تعليقا على الحكم في إحدى هذه القضايا الكبيرة المثيرة: (بدون قانون لا يستقر مجتمع، وبدون أخلاق لا يسود، وبدون إيمان لا تستمر أخلاق).

والروح غير البدن: لها وسائل تربية مخالفة لوسائل تربية البدن، ولها أغذية وأدوية خاصة لأمراضها، فالجوع مثلا يعالج بالشبع والعطش بالري وحبس البول بالتخلص منه ومن ألمه.

قال صلى الله عليه وسلم: (إنه لُيغان على قلبي وأني لَأستغفر الله في اليوم سبعين مرة). رواه مسلم^(١).

* * *

٩- الإعجاز العلمي في قلب الإنسان:

ومن خلال بحثي في موسوعات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وجدت أن الدكتورة نُهى أبو كريشة وهي أستاذة في كلية الطب جامعة القاهرة قد ذكرت أن القلب له مسؤولية وأنه ليس مسؤولاً عن ضخ الدم فقط، وأن له علاقة بالعواطف والمشاعر، وأنه يمرض ويطمئن ويخاف ويخشع ويقسو ويلين، وهو بذلك يحمل صفات مادية وصفات معنوية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد: ١٦.

(١) انظر غذاء الأبواب في شرح منظومة الآداب لمحمد بن سالم السفاريني، ج ٢، مؤسسة قرطبة ١٩٩٣.

وقال أيضا: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر: ٢٢.

وقال: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الزمر: ٢٣.

وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الأنفال: ٢.

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

وقال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾ الحج: ٥٣، ٥٤.

- وذكرت أن امرأة زرع لها قلب شاب أنها أصبحت تتصرف تصرف ذكوري وتحب أكل أشياء لم تكن تطيقها.

- وهناك قصص تشبهها منشورة في كبريات المواقع والمنشورات والصحف والمجلات العلمية المتخصصة، وهذا ما دفع البعض إلى الإيمان بـ (ذاكرة الخلية التي بدأت تستحوذ على الاهتمام العلمي مع تقدم تقنية زرع القلب).

- وأشارت الباحثة إلى أن د. أندرو أرمور عام ١٩٩١م قدم وجود مفهوم العقل في القلب وهو يتكون من شبكة خلايا وتعمل باستقلالية عن خلايا المخ وترسل المعلومات إلى المخ والأوعية المتخصصة للإدراك، ويضيف الدكتور إلى أن القلب إذا زرع فإنه يستعيد من ذاكرته القديمة المخزنة ويرسل إشارات إلى المخ الجديد للشخص.

- وذكرت أن العالم النفساني (بول بيرسال) متخصص في علم المناعة النفسعصبية ومؤلف كتاب (شفرة القلب) أنه عام ٢٠٠٢ قدم بحث بعنوان (تغيرات في شخصيات المزروع لهم توازي شخصيات المتبرعين) وأجرى تجارب على حوالي ٧٤ شخص تم زرع قلوب لهم ووجد نفس المعاني... وهي تحول سلوكهم.

- وذكرت الباحثة أن العلماء أدركوا أن العلاقة ثنائية بين القلب والمخ وأنها ثنائية الاتجاه، ولكن هناك أربعة وسائل يؤثر القلب بها على المخ:

١- عصيبا من خلال النبضات العصبية.

٢- كيميائيا بواسطة الهرمونات.

٣- فيزيائيا بموجات الضغط.

٤- طاقويا من خلال المجال الكهرومغناطيسي للقلب.

كما وأشارت الباحثة إلى أن هناك أبحاث بيولوجية تدرس تفاعل المعلومات تبادليا بين القلب والعقل، وبهذا يثبت أن العقل المستقبل للقلب المزروع يتلقى إشارات كهرومغناطيسية من قلب المتبرع، وإذا ثبت ذلك فإن هناك أحكاما شرعية تتولد عن هذا وهي ضوابط لنقل القلب وزراعته.

وهكذا نصل إلى صدق قول الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت: ٤٢، ويجعلنا نتدبر القرآن أكثر كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد: ٢٤.

وكذلك ومن خلال بحثي في موسوعات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وجدت أن للمهندس: سيف الدين بن الشيخ محمد نور بحثا بعنوان: (The Heart's Code) شيفرة القلب... لهم قلوب لا يفقهون بها.

فحواه أن من يقود الناس وحركاتهم وسكناتهم وعواطفهم هو القلب أساسا، ثم

تشع بعد ذلك إلى المخ عبر مراكز عصبية، ودليله في ذلك أن ممن أجريت لهم زراعة القلب يشعرون كما لو كان لهم تواجد وجداني لشخص آخر، وأن ميولهم الجديدة غير السابقة، فاهمك أحدهم في الرياضة وهي غير مألوفة له سابقا وآخر في قراءة الشعر الذي لا يعرفه، وثالث في تسلق الجبال رغم خوفه السابق من السقوط ورابع باشر عزف الموسيقى، والآخر كشف موهبة الكتابة... وهكذا.

- وسئل طبيب وجراح القلب العالمي الشهير مجدي يعقوب عن هذا الأمر فأجاب بأننا لا نملك الوسائل المتوفرة إلى الآن لإثبات أو نفي ذلك.

ولعل هذا ما أشار إليه الشاعر بقوله:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا تراه الناظرينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا

وقد عبر القرآن عن شمولية القلب في عدة آيات كقوله تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارغًا﴾ القصص: ١٠.

﴿وَلَتَنْصَعِي لَّيْلَهُ أَفْئِدَةً الّٰذِينَ لَا يُوْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الأنعام: ١١٣.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

بِهَا﴾ الأعراف: ١٧٩.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْنُورًا﴾ الإسراء: ٣٦.

كما دخلت على موقع عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فوجدته

يؤكد من خلاله على أن داخل القلب دماغ يفكر ويفهم ويشعر، ولذلك إشارات قرآنية تؤكد دور القلب في الفهم والإدراك ولخص عمله في النقاط التالية.

- أ- جمع الموقع معظم التجارب والأبحاث والمشاهدات والحقائق حول هذا الموضوع، مما جعله يثبت سبق القرآن إلى هذه التجارب في علم القلب.
- ب- ولاحظ الباحث أن القلب يخلق قبل الدماغ، وأن القلب المزروع يبدأ بالنبض على الفور دون انتظار أمر من الدماغ.
- ج- القلب يغذي أكثر من ٣٠٠ مليون خلية ويبلغ وزنه من ٢٥٠-٣٠٠ غرام.
- د- يبدأ العمل بعد ٢١ يوم من الحمل، وعن البلوغ يضخ أكثر من ٧٠ ألف لتر في اليوم أثناء الانقباض والانبساط، ومن بلغ ٧٠ عاما يكون قلبه قد ضخ مليون برميل من الدم.
- هـ- طول شبكة الأوعية والشرابين في الجسم يبلغ حوالي ١٠٠ ألف كيلومتر، والقلب يزود الجسم بالأكسجين عبر الخلايا.
- و- بدأ الباحثون يدرسون العلاقة بين القلب والدماغ حديثا عندما لاحظوا العلاقة القوية بين ما يفهمه الإنسان ويشعر به وبين معدل ضربات القلب وضغط الدم والتنفس في الرئتين.
- والعلماء لم يستطيعوا أن يكشفوا أسرار القلب، ومن الممكن أن يكون للقلب طاقة يتم بواسطتها تخزين المعلومات ومعالجتها، وعليه فإن الذاكرة ليست فقط في الدماغ بل قد يكون القلب محركا لها ومشرف عليها.
- ز- أول قلب صناعي تم زرعه عام ١٩٨٢ وعاش المريض ١١١ يوم، وفي عام ٢٠٠١ تم صنع قلب صناعي وزنه ٩٠٠ غرام زرع لمريض وعاش بعده أربعة أشهر ثم مات.
- ح- صاحب القلب الصناعي يفقد القدرة على الإحساس والعواطف والحب، وقد نشرت جريدة الواشنطن بوست تحقيقا يوم ١١/٠٨/٢٠٠٧ لرجل صنع قلب أنه

قال: (لم أعد أعرف كيف أشعر وأحب حتى أحفادي لا أحس بهم ولا أعرف كيف أتعامل معهم، ولا أحس أنهم جزء من حياتي كما كنت من قبل). وأصبح لا يهتم بالمال ولا بالحياة ولا يعرف لماذا يعيش، وأحيانا يفكرن الانتحار والتخلص من هذا القلب المشؤوم.

لذا قال علماء النفس لا ينبغي أن تتعامل مع الجسم وكأنه آلة ولا بد من دراسة علاقة العاطفة والنفس بأعضاء الجسم، وهكذا ما أشار إليه البروفيسور: آثور كابلان رئيس قسم الأخلاق الطبية في جامعة بنسلفانيا.

ط- التفسير العلمي لهذه الظاهرة هو أن في داخل القلب خلايا بها برامج خاصة للذاكرة تخزن الأحداث التي مر بها الإنسان وترسل هذه البرامج للمخ ليقوم بمعالجتها.

١٠- التأثير النفسي للقرآن الكريم:

كل قارئ قارئ للقرآن الكريم لا ينكر التأثير النفسي للقرآن الكريم، وأثناء بحثي في الموضوع وجدت الباحثة د. رقية طه العلواني قد أشارت إلى معاني مهمة أوجزها فيما يلي:

أ- القرآن يشير إلى أنه شفاء وليس دواء، لأن الدواء قد يفيد وقد لا يفيد.

ب- شفاء القرآن يظهر فيمن يقرأه ويسمعه، وتأثيره في المؤمن والكافر.

ج- كان المشركون يستمعون إلى القرآن وكان يؤثر على مشاعرهم رغم عنادهم وكبرهم وكراهيتهم للحق.

د- في مدينة بنما سيتي بولاية فلوريدا، أجريت تجارب في عيادات لمعرفة تأثير القرآن على الجسد وعلى وظائف أعضائه مع قياس هذا الأثر بواسطة أجهزة المراقبة الالكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس التغيرات الفسيولوجية وكانت النتائج:

١ - أن للقرآن تأثيراً إيجابياً لتهذبة التوتر وظهر ذلك على شكل تغيرات في التيار الكهربائي وتغيرات في قابلية الجلد للتوصيل الكهربائي وتغيرات في الدورة الدموية وما يصحب ذلك من عدد ضربات القلب وكمية الدم الجاري في الجلد ودرجة حرارة الجلد.

٢ - تأثيرات فسيولوجية وتغير في الجهاز العصبي والذي يؤثر على بقية الأعضاء الأخرى في الجسد.

- وفي فلوريدا الأمريكية أجريت تجارب على ثلاث مجموعات:

أ- مجموعة تستمع لتلاوة القرآن الكريم ..

ب- مجموعة تستمع إلى قراءات عربية غير قرآنية.

ج- مجموعة لا تستمع لأي شيء، ووجدوا المجموعة الأولى تتمتع بتغير إيجابي في ضربات القلب والدورة الدموية، رغم أن في المجموعة غير مسلمين وغير عرب. ومن المعروف طبياً أن التوتر والقلق والهم والغم تؤدي إلى نقص في المناعة، ويكون مؤهلاً لهجمات الأمراض.

والقرآن (استماعاً وتدبراً) يساهم في عملية الشفاء نفسياً وبدنياً بتقليل التوتر وإعادة توازن الجهاز النفسي والعصبي للمؤمن فهو أمان من اختراقات المرض. وأثبتت الدراسة أن مفاهيم قرآنية لها تأثير شديد في مساعدة المريض في التخلص من المشاعر السلبية الموجودة بصفة دائمة في الأمراض المزمنة.

- يمكن للإنسان ومن خلال تأثير القرآن في أفكاره وعواطفه أن يتحكم في وظائف خلاياه المناعية لأنه يمكن للخلايا المناعية قراءة عقل صاحبها وذلك من خلال استجابتها للأشعة الكهرومغناطيسية والنبضات المارة في العقل (الأفكار والعواطف)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ الأعراف: ١٧٩.

فغض البصر وحفظ اللسان والأذن ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اجعل في قلبي نور وفي لساني نور وفي سمعي نور وفي بصري نور...) ^(١)، كل هذا يقوي المناعة النفسية والعضوية.

وقد أثبت علم دراسة الأصوات مدى تلازم النبرات في ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها وعلوم الطبقات الصوتية مما يجعلنا نؤمن أكثر بتأثير الصوت القرآني على جهاز المناعة للإنسان.

ففي القرآن وحده الآن القوة الشفائية والطب لا يزال عاجزا رغم اكتشافه يوم بعد يوم للحديد.

والتسامح مع النفس أهم أسلحة العلاج، وكذلك المغفرة والصفح ويقوي الصيدلية الداخلية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ المائدة: ٤١، وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ المائدة: ٤١.

(١) انظر الجامع الصحيح للشيخ الألباني تحت رقم ٦٣١٦ والحديث صحيح.

الخاتمة

ومما سبق نؤيد أهم النتائج التي توصلت إليها الأبحاث وهي:

- ١- أن الله تعالى هو خالق الكون والإنسان وقد كرم الإنسان بأن خلقه بيده وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها ونفخ فيه من روحه، ورسم له منهج السعادة والأمان والطمأنينة.
- ٢- أن الله تعالى خلق الإنسان لأهداف ومقاصد كبرى حاکمة هي: (العهد- الأمانة- الاستخلاف- العمران) وكل ذلك ممتزجا بقاعدة الابتلاء.
- ٣- أن الجانب الروحي والنفسي في الإنسان هو المهم، ويتجلى ذلك في قلبه الذي يثر في بقية الأعضاء التي هي وسائط لانشراحه وسكينة.
- ٤- للقرآن الكريم تأثير نفسي إيجابي يساعد في تقوية المناعة، كما يساعد على التخلص من المشاعر السلبية التي تعترض الإنسان.
- ٥- أن تأثير القرآن يشمل كل من يستمع إليه فضلا عن المؤمن به والمتدبر لمعانيه.
- ٦- أن مركز القلب يقوم بتوجيه الدماغ لأداء مهامه لذا جعل الله القلب وسيلة تعقل قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦.
- ٧- حدد القرآن مركز الإدراك لدى الإنسان وهو ما يكشفه العلماء اليوم. قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الأنعام: ١٧٩.
- ٨- كل من يزرع قلبا يفقد العاطفة والإحساس الأصلي، وأن من يزرع قلبا صناعيا يشعرون بقسوة غريبة، وقد وصف القرآن اليهود بقوله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ البقرة: ٧٤. ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ

ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿الزمر: ٢٢﴾، وقال عن المؤمنين ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿الزمر: ٢٣﴾.

٩- تحدث العلماء عن ذاكرة القلب وأن القلب مستودع للمعلومات والأحداث قال تعالى: ﴿وَلَيَتْلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿آل عمران: ١٥٤﴾.

١٠- يؤكد بعض الباحثين تأثير عمل القلب على السمع لذا ربط القرآن بين القلب والسمع قال تعالى: ﴿وَوَطِّعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٠٠﴾.

١١- أهمية دور القلب على العلم والتعلم لتأثيره على خلايا الدماغ قال تعالى: ﴿وَوَطِّعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿التوبة: ٩٣﴾.

١٢- لا مجال للمعلومات الكاذبة داخل القلب فهو يخزن فقط المعلومات الصادقة لذا فعندما يكذب الإنسان بلسانه فإن يقول عكس ما يخزنه قلبه من حقائق ومعلومات ومركز الكذب هو الناصية وفي أعلى مقدمة الدماغ، وهذه المنطقة تنشط أثناء الكذب قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿الفتح: ١١﴾. واللسان الكاذب يتحرك بأمر من الناصية في الدماغ لذا وصفه تعالى بقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ﴿العلق: ١٦﴾.

١٣- علاقة القلب بالخوف والوجل، وأن القلب الصناعي يفقد ذلك، ويفقد إيمانه كذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿الأنفال: ٢﴾.

١٤- لا بد من تبدل الأحكام في حالة زراعة القلب من كافر إلى مسلم أو العكس وإذا ثبت ذلك في الدم فكذلك، وهنا لا بد من فتح مجال الاجتهاد للمجامع الفقهية للنظر في آثار ذلك.

قال صلى الله عليه وسلم: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله

وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

وعلمنا القرآن الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ آل عمران: ٨، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)^(١).

* * *

(١) الراوي: عائشة المحدث: الترمذي - المصدر: سنن الترمذي - الصفحة أو الرقم: ٣٤٨٠.

أهم المراجع

- ١- كتاب معارج القدس في مدارج النفس لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ص: ١٥ وما بعدها طباعة شركة الشهاب- الجزائر ١٩٨٩م.
- ٢- الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي ص: ١١١-١١٢ دار الشهاب بياتنة - الجزائر .
- ٣- صحيح أبي داود المجلد ٨٩٢/٣ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف -الرياض- المملكة العربية السعودية ط/١ عام ١٩٩١م.
- ٤- انظر كتاب تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف ص: ٧٠-٧١ (ابن رجب- ابن القيم- أبو حامد الغزالي) دار القلم بيروت.
- ٥- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند ج ٢٣٩/١ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض ط/٣ عام ١٩٨٨م.
- ٦- كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للإمام الحافظ المنذري ج ٣ ص ٤١٤ دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٦٧م.
- ٧- السلسلة الصحيحة ج ٢٨٨/٥ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف- الرياض- المملكة العربية السعودية ط/١ عام ١٩٩١م.
- ٨- صحيح أبي داود ج ٩٣٣/٣ كتاب الأدب والاستئذان والصلة حديث رقم ٤١٣٢.
- ٩- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى/ تأليف: أبي حامد الغزالي؛ اعتناء بسام الجابي. - ط. ١. - بيروت، لبنان: دار ابن حزم، ٢٠٠٣. - ١٨٣ ص (دار ابن حزم - بيروت).
- ١٠- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند ج ٢-١٤٠ تحقيق: محمد ناصر الدين

- الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض ط/ ٣- ١٩٨٨م.
- ١١- وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ص: ١٢٤ تأليف العلامة الشيخ يوسف ابن إسماعيل النبھاني، طباعة مكتبة النهضة بالجزائر.
- ١٢- كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للإمام الحافظ المنذري ج ٣ ص ٣٥١ دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٦٧م.
- ١٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني ١٤٣/٦ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض ط/ ١- ١٩٩٦م.
- ١٤- الطب النبوي لابن القيم الجوزية- دار مكتبة الهلال بيروت لبنان ١٩٩٢م.
- ١٥- الداء والدواء لابن القيم الجوزية دار ابن كثير دمشق سورية.
- ١٦- المستصفى للغزالي دار ابن حزم بيروت لبنان.
- ١٧- الأحكام في أصول الأحكام للآمدي دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٨- مواقع وأبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على شبكة النت.
- ١٩- منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر مطبوعات ٢٠٠٥م.
- ٢٠- الفوائد لابن القيم الجوزية دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر ١٩٩٨م.

* * *

